إسهام في دراسة قصر الحير الشرقي

تحقيق في اسم الموقع

بقلم الدكتور عبد القادر الريحاوي

تقع آثار قصر الحير الشرقي في بادية الشام بين تدمر والرصافة، وتبعد عن الاولى نيفاومئة كيلومتر . كما تقع على وجه الدقة على مسافة خمسة عشر كيلومترا الى الشرق من قرية الطيبة (أنظر المصور) ، ويحتوي الموقع على منشآت عمرانية نسبها أكثر الاثريين الى العصر الاموي بل الى الخليفة هشام بن عبد الملك ذاته، وتتألف من قصر كبير هو على الارجح مدينة صغيرة مسورة نظرا لاحتوائه على عدد من الوحدات السكنية ومسجد ، ومعاصر للزيتون، كما أن سور المدينة مزود بأربعة أبواب تمتد منها شوارع تتلاقى وسط المدينة . وقد عثر فيها على حجر نقش عليه نص يشير الى انشاء مدينة في عهد هشام سنة مئة وعشر(١) . وهناك الى جوارها قصر صغير على شاكلة القصور الاموية الاخرى وخارجه آثار حمام ، وكان يحيط بهذه المنشآت بساتين ومزارع محاطة بسور متقن البناء ما تزال آثاره موجودة وكان الموقع يتزود بالمياه بواسطة قناة تسوق المياه اليه من نبع الكوم الذي يبعد مسافة ثلاثين كيلومترا الى الشمال الغربي منه .

ليس الهدف من هذا البحث التحدث عن آثار القصر ووصف مبانيه ومناقشة تاريخ انشائها ، فقد تحدث العديد من العلماء في هذا الموضوع(٢) ، انما غرضنا نشر ما عثرنا عليه

---

(١) فقد هذا الحجر بعد نقله الى حلب من قبل قنصل فرنسي يدعى « دوسو » سنة ١٨٠٨ ، وقد نشر نصه الكامل في رحلته ، ونقل عنه من اتى من الاثريين . واليكم النص :

(١) بسم الله الرحمن الرحيم (٢) لا اله الا الله وحده لا شريك له (٣) محمد رسول الله امر بصنعة (٤) هذه المدينة عبد الله هشام (٥) امير المؤمنين وكان هذا مما (٦) عمل أهل حمص على يدي سليمان بن عبيد سنة عشر ومئة .

(٢) انظر : ا) Clermont-Ganneau : Chateaux des deux frères, Rec. Arch. Orient., III, p. 289.

ب) A Gabriel : Syria, VII, 1927, pp. 302 — 322

ج) Creswell : Early Muslim Architecture, Col. I, pp. 330 — 348

د) O Grabar : A.A.S. , T. XV, 1965, pp. 107 — 129

T. XVI, 1966, pp. 29—40

T. XX, 1970, pp. 45—54

(انظر ايضا خلاصة مترجمة الى العربية لهذه المقالات في الحوليات الاثرية السورية لخالد الاسعد في القسم العربي من المجلدات المشار اليها) .

من نصوص تاريخية تتعلق بالموقع ، وما أوصلنا اليه التحقيق من نتائج جعلتنا نعتقد بأن اسم الزيتونة هو أكثر الاسماء انطباقا على الحير الشرقي من أي اسم آخر . ذلك لأن عبارة الحير الشرقي اسم أطلق في عهد متأخر جدا على الموقع ، كما اطلق على موقع آخر مماثل هو الحير الغربي الذي يقع جنوبي غربي تدمر . والحير تعني البستان او الواحة .

لقد حاول أكثر الذين درسوا آثار الحير الشرقي التعرف على اسمه الاصلي ، ولكن المصادر، وكذلك المكتشفات لم تسعف في معرفته فلم يتعد الامر التكهنات والفرضيات . اعتمد هؤلاء جميعا خبرا أورده كل من البلاذري والطبري حول اقامة هشام في البادية ويحسن أن نقرأ قولهما كاملا :

ا) يقول البلاذري(٣) :

« وأما رصافة هشام ، فان هشام بن عبد الملك احدثها وكان ينزل قبلها الزيتونة ، وحفر الهني والمري واستخرج الضيعة التي تعرف بالهني والمري وأحدث فيها واسط الرقة» .

ب) ويقول الطبري(٤) :

« ان الخلافة أتت هشاما وهو بالزيتونة في منزله في دويرة له هناك ، قال محمد بن عمر ، وقد رأيتها صغيرة ، فجاءه البريد بالعصا والخاتم وسلم عليه بالخلافة فركب هشام من الرصافة حتى اتى دمشق » .

ويقول الطبري(٥) في مكان آخر متحدثا عن الرصافة : « وهي برية ابتنى بها قصرين ، والرصافة مدينة رومية بنتها الروم » .

وفيما يلي أهم الفرضيات التي وضعها العلماء اعتمادا على النصوص المتقدمة :

١ ــ اعتقد شلومبيرجه D. Schlumberger بعد قيامه بالتنقيب في الحير الغربي(٦) بأن اسمه القديم الزيتونة ، ولكن على سبيل الاحتمال لا التأكيد .

٢ ــ ثم جاء سوفاجه(٧) فحاول ان يثبت بأن الحير الشرقي ما هو الا رصافة هشام معتمدا على قول الطبري المار ذكره الذي يشير الى اشادة هشام قصرين في الرصافة .

ويرى بأن الموقع سمي في البدء الرصافة ثم أطلق عليه فيما بعد اسم رصافة هشام لتمييزه عن الرصافات الاخرى ، ثم التبس الامر على المؤرخين فخلطوا بين رصافة هشام والرصافة الحالية (مدينة سيرجيوبوليس البيزنطية الواقعة على مسافة تقارب خمسة وعشرين كيلومترا جنوبي الفرات) .

انتقد سليم عبد الحق في مقاله عن اعادة

هـ) Sauvaget, Comptes rendus, B.E.O., Vol. V, 1935, pp. 132-137

و) الدكتور سليم عادل عبد الحق : اعادة تشييد قصر الحير الغربي في متحف دمشق ، مجلة الحوليات الاثرية السورية ، الجزء الاول من المجلد الاول لعام ١٩٥١ ، الصفحات ٥ ــ ٥٨ .

ز) الدكتور عفيف بهنسي : القصور الشامية وزخارفها في عهد الامويين ، الحوليات الاثرية ، المجلد ٢٥ ، لعام ١٩٧٥ الصفحات ٩ ــ ٤٤ .

(٣) فتوح البلدان ، طبعة مصر ، ١٣١٩ هـ ، ص ١٨٧ .

(٤) تاريخ الطبري ، المطبعة الحسينية بمصر ، ١٣٢٦ هـ ، الجزء الثامن، ص ١٨٠ .

(٥) المصدر المتقدم ، ٢٨٧/٨ .

(٦) Les fouilles de Qasr-el-Heir el-Gharbi (1936-1938), Syria, Γ. XX, 1939 pp. 194-238, 334-373

(٧) المصدر السابق ، الحاشية (رقم ٢ ، هـ)

تشييدقصر الحير الغربي[٨] رأى سوفاجيه ونفى أن يكون الحير الشرقي هو رصافة هشام ، أما بصدد الزيتونةفقد وضع عدة احتمالات تناولت الحير الغربي والحير الشرقي وخربة المفجر (قصر هشام في أريحا) ٠

٤ ـ أما غرابار فكل ما توصل اليه حتى الآن بشأن اسم المكان افتراضه « العرض» اسما لموقع الحير الشرقي ، أطلق عليه في زعمه في القرون الوسطى بين القرنين العاشر والرابع عشر ٠

ولم يتعرض للبحث عن اسم الموقع في العهد الاموي ٠ ولعل السبب في موقفه هذا يعود الى رأيه في تاريخ المنشآت[٩] فهي منشآت أموية أكملت في العصر العباسي ، تعرضت للتخريب في مطلع القرن العاشر فرممت ثم هجرت كلية في مطلع القرن الرابع عشر ٠ والقصر الصغير في زعمه ليس قصرا بل هو أشبه بالخان (caravan sérail) وان بناءه لم يكتمل في العهد الاموي ٠ وحجته في ذلك فقر البناء بالزخارف[١٠] خلافا لما هي عليه في القصور الاموية ٠ أما القصر الكبير فلم يكن مدينة بل مقرا اداريا مزودا بوحدات سكنية ٠

وقبل أن نناقش هذه الآراء علينا ان نستعرض النصوص الجديدة التي عثرنا عليها اضافة لنص البلاذري والطبري اللذين تقدم ذكرهما :

النص الاول :

ويتعلق بخبر وليمة اقامها هارون الرشيد في عام ١٩٠ للهجرة ـ (٨٠٥ للميلاد) ودعى اليها بني أمية نساءهم ورجالهم ، من منازلهم في بالس[١١] والزيتونة والرصافة ، وحصن مسلمة[١١] وما حوله[١٢] ٠ المؤلف الذي أورد الخبر هو القاضي الرشيد بن الزبير ، من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ٠

ونستخلص من النص المتقدم المعلومات التالية :

أ) ان الزيتونة التي تحدث عنها البلاذري والطبري يجب أن تكون في بقعة قريبة من الرقة والرصافة وأقرب موعد أموي اليها هو الحير الشرقي ، وليس غيره ٠

ب) ظلت الزيتونة في عهد الرشيد تحت أيدي الامويين ، بل في ورثة هشام بن عبد الملك ذاته ٠ فقد ورد في النص المشار اليه أن في عداد من حضروا وليمة الرشيد امرأة من الزيتونة كانت أجمل من كان من النساء الامويات والهاشميات واسمها زينب بنت أحمد بن محمد بن سعيد بن هشام بن عبد الملك ٠

النص الثاني :

خبر رواه ابن العديم المتوفي سنة ٦٦٦ للهجرة (١٢٦٧ م) في كتابه بغية الطلب في تاريخ حلب ٠ يقول في ترجمة القرمطي صاحب

---

(٨) المصدر السابق ، الحاشية (رقم ٢ ، هـ) ٠
(٩) لخصنا رأيه هذا من مقالاته التي أشرنا اليها في الحاشية رقم ٤ ، ومن تقرير لم ينشر وضعه عن موسم التنقيب في عام ١٩٧٠ ٠
(١٠) نرجح ان يكون سبب فقر القصر بالزخارف كونه بني قبل تولي هشام الخلافة ٠ واذا ثبت ، كما سياتي ، ان اسم الموقع هو الزيتونة ، فانه سيكون الدويرة التي ذكرها البلاذري ، والتي كان يسكنها هشام قبل توليه الخلافة ، ثم ان واجهة البناء الجميلة والفن المعماري المتمثل فيها والتخطيط الداخلي كل ذلك يجعل من المستبعد ان يكون البناء خانا ٠
(١١) بالس : هي بلدة مسكنة القديمة ٠ انظر عن بالس وحصن مسلمة :مقالنا حضارة الجزيرة والفرات ، الحوليات الاثرية ، المجلد ١٩ ، الصفحات ٤٧ ـ ٤٩ ٠
(١٢) كتاب الذخائر والتحف ، تحقيق الدكتور محمد حميد الله ، الكويت ١٩٥٩ ٠

الخال(١٣) : « وصار الى السخنة والاركة والزيتونة وخناصرة من الاحص من اعمال حلب ، ودخل هذه المواضع عنوة ونهب ما فيها من الاموال والسلاح ، وأفسد بالشام وعاث في بلادها وغلب على أطراف حمص »(١٤) . حدث ذلك سنة ٢٩٠ هـ (٩٠٢ م) .

ويروي ثابت بن سنان المتوفى عام ٣٦٥/٩٧٥ من اخبار القرامطة التي حدثت في هذا العام انهم حاصروا دمشق واستولوا على حمص وحماه وسلمية ودخلوا القرى المجاورة لها ثم حاصروا حلب وكانوا قد ظهروا في العام السابق في الشام وأحرقوا مسجد الرصافة(١٥) .

يتضح من نص ابن العديم ، ان الزيتونة كانت قريبة من المواقع التي عددها وكلها معروفة لدينا باستثناء الزيتونة . وتقع في المنطقة الشمالية من تدمر . ونجد على المصور موقعين هامين قريبين الى بلدة السخنة وهما الطيبة والحير الشرقي ، ولكن الاخير هو الوحيد الذي ينطبق عليه أوصاف الزيتونة كموقع فيه منشآت أموية :

نستخلص مما تقدم الحقائق التالية :

أولا :

لا يمكن أن يكون الحير الشرقي رصافة هشام ، كما اعتقد سوفاجه ، فالرصافة الحالية هي نفسها رصافة هشام لان العبارة التي وصفها بها الطبري « وهي برية ابتنى بها قصرين . والرصافة مدينة رومية بنتها الروم(١٦) لا تدع مجالا للشك فيما ذهبنا اليه ، فضلا عن أن اكتشاف قصر أموي فيها خارج الاسوار من قبل البعثة الاثرية الالمانية(١٧) يؤكد هذه الحقيقة .

ثانيا :

لا يمكن ان يكون الحير الشرقي نفسه بلدة العرض ، كما يعتقد « غرابار » لاننا بعد ان تحرينا العديد من المصادر القديمة لم نجد للعرض ذكرا قبل ياقوت الحموي ، فهو اول من ذكرها ووصفها بقوله : « بليدة في برية الشام تدخل في أعمال حلب الآن ، وهي بين تدمر والرصافة الهشامية(١٨) » . ثم حدد موقعها بشكل ادق حينما وصف بلدة السخنة وقال ان موقعها بين أركة وعرض(١٩) .

وهذا التحديد ينطبق على بلدة الطيبة الواقعة الى الغرب من قصر الحير شمالي بلدة السخنة . لا سيما وأن ياقوت حينما ذكر في معجمه الزيتونة وصفها بأنها موضع كان ينزله هشام ، بينما لم يصف العرض بشيء من ذلك . ونحن نعلم ان الطيبة اسم حديث أطلق على البلدة وهي قديمة ، نجد فيها مئذنة مربعة من الحجر وآثار خرائب قديمة يعتقد « دوسو »(٢٠) أنها بلدة « أوريزا ORIZA » القديمة والعرض في العهود القريبة .

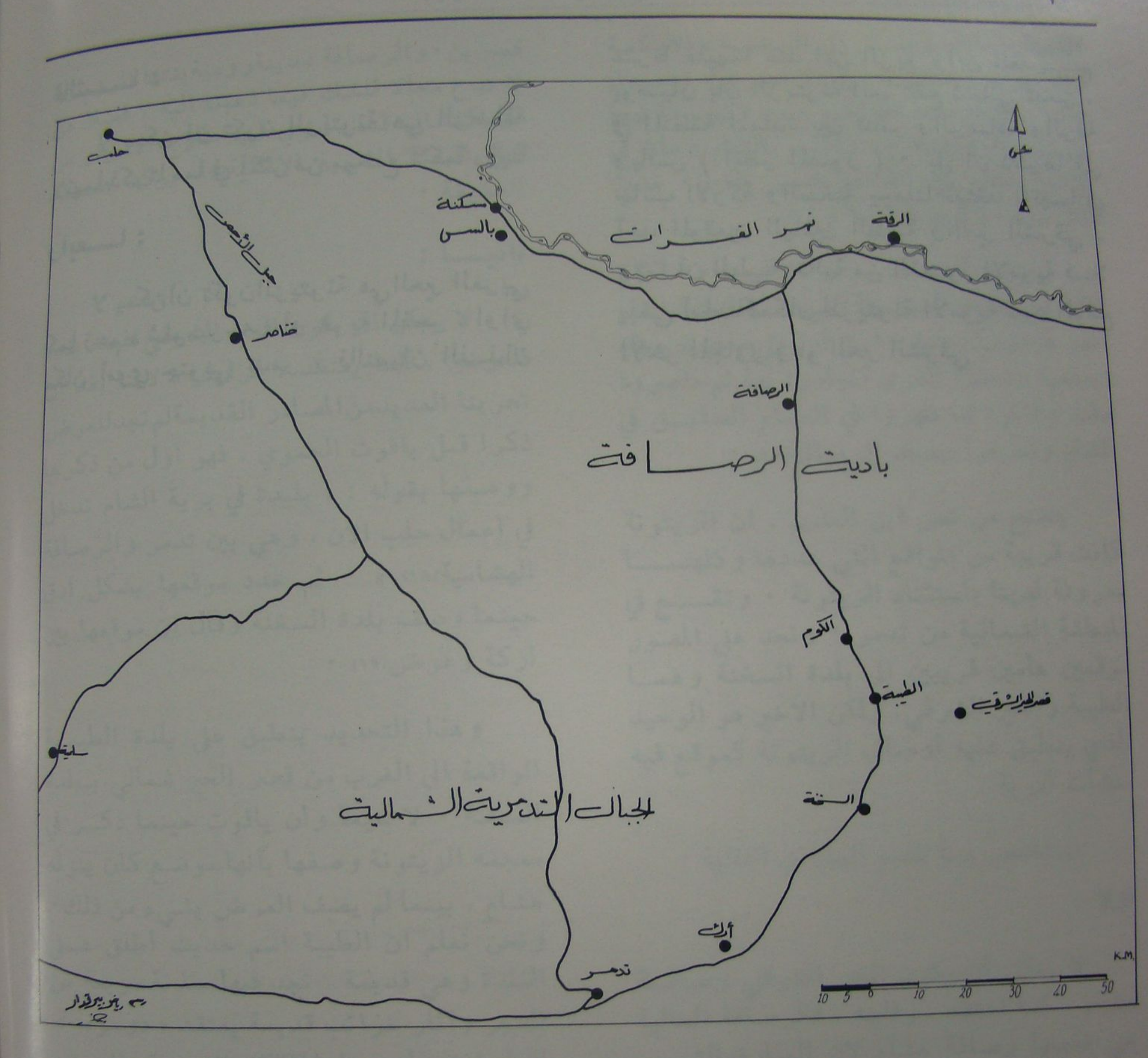
(١٣) يسميه الطبري (٣٨٣/١٢) صاحب الشامة ، واسمه الحسين بن زكرويه بن مهرويه .
(١٤) تاريخ اخبار القرامطة ، تحقيق الدكتور سهيل زكار ، بيروت ١٩٧١ .
(١٥) المصدر السابق ص ١٨ وما بعد .
(١٦) الطبري ٢٨٧/٨
(١٧) انظر مقال كاترينا اوتودورن ، الحوليات الاثرية ، المجلد الرابع والخامس ١٩٥٤ - ١٩٥٥ .
(١٨) معجم البلدان ، ٦٣٥/٣ ، طبعة ليبزغ ، ١٨٦٨
(١٩) المصدر السابق ٥٢/٣ .
(٢٠) Topographie Historique de la Syrie Antique et Médiévale, Paris 1927 p. 251-252

ثالثـــا :

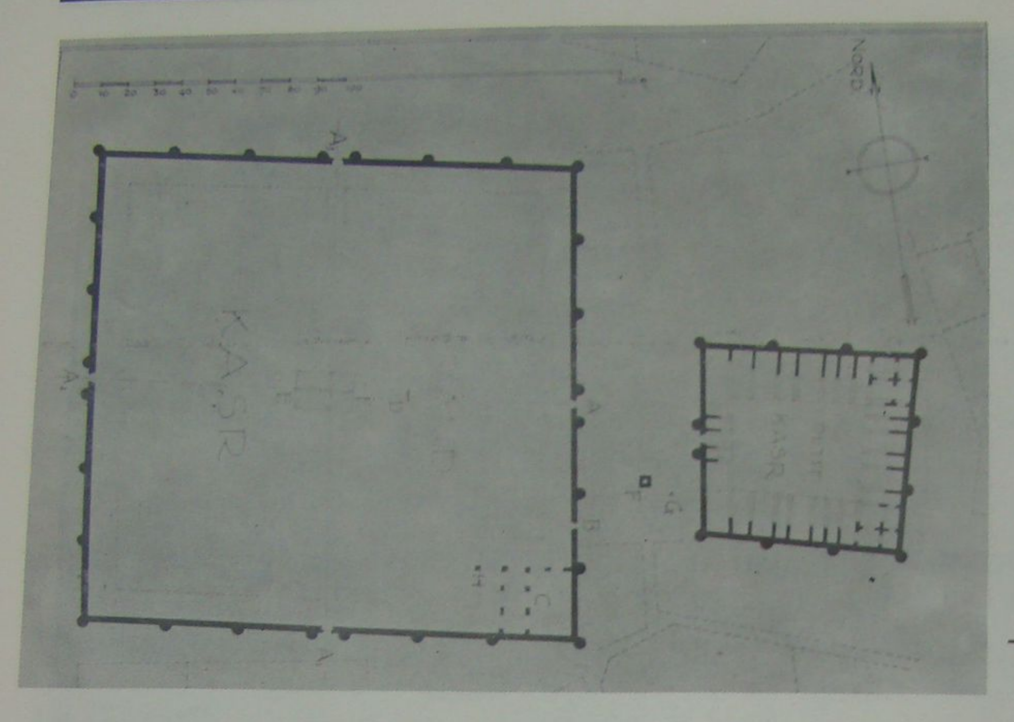
لا يمكن ان تكون الزيتونة هي الرصافة لانهما ذكرتا معا في أكثر من موضع ، كما رأينا

رابعـــا :

لا يمكن أن تكون الزيتونة هي الحير الغربي كما زعم « شلومبرجه » أو خربة المفجر ، اواي مكان أموي جنوبي تدمر ، فالنصان اللـــذان عثرنا عليهما عند ابن الزبير وابن العديـــم يوصيان بأن الزيتونة انما تقع شمالي تدمر ، في المنطقة الممتدة بين تدمر والرصافة والرقة وبالس (انظر المصور) . بل ان ذكرها الى جانب الاركة والسخنة يجعلنا نعتقد بأنهـا في أحد الموقعين الهامين الطيبة والحير الشرقي ، وبما أن الطيبة خالية من القصور الاموية فـلا يبقى أمامناكمكان للزيتونة الاموية سوىالموقع الآخر المجاور وهو الحير الشرقي .



مصور موقع القصر والمنطقة المحيطة



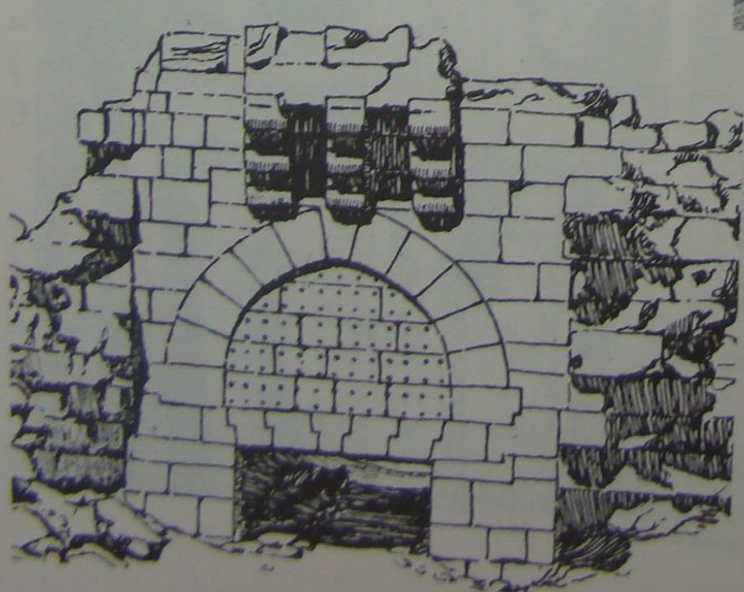
اللوحة رقم ١ :
أ) المخطط العام للقصرين
(نقلا عن كابرييل)



ب) واجهة القصر الصغير والمئذنة ٠



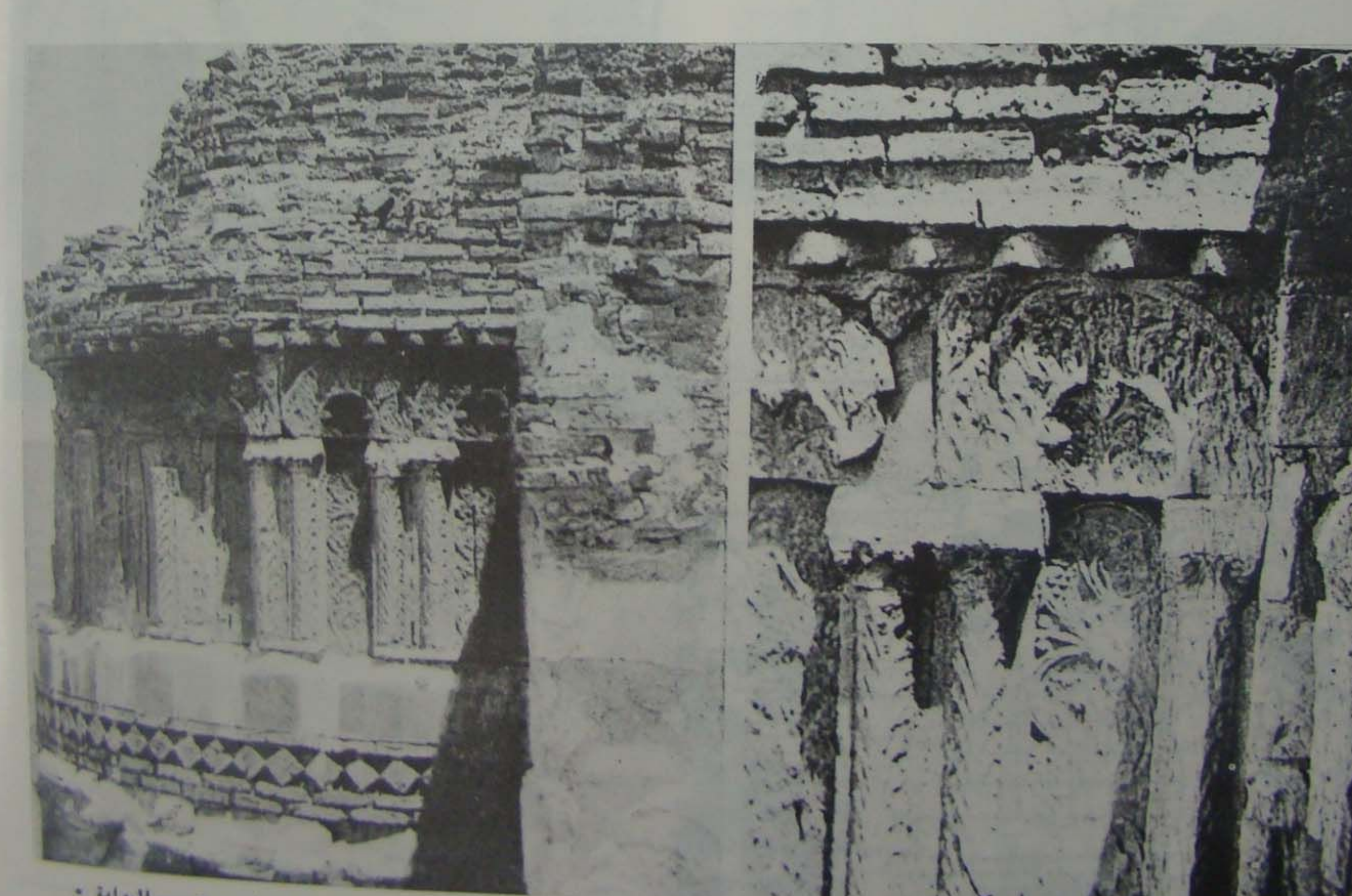
جـ) اطلال المسجد



هـ) احد ابواب القصـــر الكبير (المدينة) ٠



اللوحة رقم ٢ : ا) بوابة القصر الصغير



ب) القصر الصغير ـ زخارف في اعلى برجــي البوابة .